مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
مؤتمر اللغة العربية وآدابها الدولي الثاني // أربيل 30 - 31 / 7 / 2025
doi.org/10.52866/esj.2025.15

تشكيل الوعي الجماعي في الشعر العربي من الجاهلية إلى العصر العباسي مقاربة سوسيولوجية

م.د. منى محمد حاتم ، م.م. منى عطية مهنة
جامعة الكرخ للعلوم
munaaldbe@kus.edu.iq munamohammed@kus.edu.iq

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى تحولات الوعي في الشعر العربي، ففي العصر الجاهلي يبدأ الوعي المتشكل في القصيدة وعياً جمعياً فالشاعر في هذا العصر لا يتحدث عن نفسهِ بل هو لسان حال القبيلة ينطق بلسانها، أما في العصر الإسلامي كانت القصيدة العربية تتحدث عن القبيلة أيضاً وعن الإسلام وقيمه فالشعر هنا صور حياة الأمة الإسلامية. أما عن العصر الأموي لم تكن القبيلة هي المحور الأساس بل كانت ثانوية لأن في هذا العصر تحول الوعي الجماعي من الحديث عن القبيلة إلى الحديث عن الدولة الأموية، فكان الشاعر يعبر عن الجماعة ومع ذلك لم يكن الوعي في الشعر الأموي كله جماعي بل ظهر لدينا الوعي الفردي عند بعض الشعراء ويرجع ذلك إلى ظهور أغراض شعرية تصور حياة الشاعر ورؤيته الخاصة مثل شعر الزهد والخمريات فهذه الأغراض كانت تمثل اتجاه شخصي. أما عند الرجوع إلى العصر العباسي بدأ الوعي الجماعي يختفي شيئاً فشيء، فما أصاب الدولة من تطور أثر على الشعر آنذاك فهنا برز صوت الوعي الفردي يعلو في القصيدة العباسية.

الكلمات المفتاحية: الوعي، سوسيولوجيا، الشعر .

Formation of Collective Consciousness In Arabic Poetry from the Pre-Islamic to the Abbasid Era: A Sociological Approach

Lecturer Dr.Muna Mohammed Hatem , Ass. LecturerMuna Attia Mehna
Al-Karkh University of Science
munamohammed@kus.edu.iq munaaldbe@kus.edu.iq

Abstract:

This research aims to explore the transformations of consciousness in Arabic poetry. In the Pre-Islamic era, the consciousness formed in the poem began as a collective consciousness. The poet in this era did not speak for himself but rather was the mouthpiece of the tribe, articulating its voice. In the Islamic era, Arabic poetry continued to speak about the tribe, as well as Islam and its values, thus depicting the life of the Islamic nation. In the Umayyad era, the tribe was no longer the primary focus; it became secondary. During this period, collective consciousness shifted from discussing the tribe to discussing the Umayyad state. The poet expressed the collective, yet not all consciousness in Umayyad poetry was collective. Individual consciousness emerged among some poets, attributed to the rise of poetic genres that depicted the poet's life and personal vision, such as ascetic poetry (Zuhdiyyat) and wine poetry (Khamriyyat), which represented a personal direction. By the Abbasid era, collective consciousness gradually began to disappear. The developments that affected the state at that time influenced poetry, leading to the prominence of **individual consciousness** in Abbasid poetry.

Keywords: Consciousness, Sociology, Poetry .

مقدمة:

قبل الخوض في مفهوم الوعي الجماعي في علم الاجتماع يُحرى بنا أن نفهم معنى الوعي في معاجم اللغة، فقد جاء في لسان العرب أن الوعي تعني لفظ القلب الشيء. وعى الشيء والحديث يعيه وعياً وأوعاه، أي لفظه وفهمه وقبله، وفلان أوعى من فلان أي أحفظ وأفهم[1].

كما ورد في هذا المعنى في قاموس محيط المحيط وعي الشيء والحديث يعيه وعياً أي حفظه وجمعه، ووعى الغلام ناهز الإدراك، ففي هذا المعنى يمكن القول أن الوعي يعني الإحاطة بالشيء ولفظه واستيعابه والتعامل معه أو تدبيره[2].

فأن مفهوم الوعي في معناه يكاد لا يخرج عن معناه اللغوي في دلالته على الإدراك العقلي، ففي هذا المعنى يعني به «**إدراك الإنسان لذاته وما يحيط به إدراكاً مباشراً، وهو أساس كل معرفة كما يشير الوعي إلى الفهم وسلامة الإدراك، ويقصد بهذا الإدراك إدارك الإنسان لنفسه وللبيئة المحيطة به**»[3].

ووفقاً لفلسفة ماركس والتي خالف بها علماء الاجتماع المثاليين في أمثال أوحيست كونت وأميل دوركايم، والتي جعلت من علاقة الوعي والبشر علاقة عكسية فليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم، وإنما على العكس من ذلك يتحدد بناءاً على وجودهم الاجتماعي[4].

وعليه فأنه يعرف الوعي بقوله هو: «**مجموعة الأفكار والنظريات والآراء والمشاعر الاجتماعية والعادات والتقاليد التي توجد لدى الناس والتي تعكس واقعهم الموضوعي أو المجتمع الإنساني والطبيعة وبما أن الوجود الاجتماعي للناس يتصف التعقيد والتنوع، فإن الوعي الاجتماعي يتصف أيضاً بالتعقيد والتنوع ويدل استعراض التاريخ الاجتماعي أنه مع تغير الوجود الاجتماعي وتظهر بدلاً منها أفكار جديدة تتفق مع الظروف الجديدة والاحتياجات الاجتماعية الحديثة**»[5].

وبناءً على ما سبق يمكن القول أن الوعي الجمعي بأنه مجموعة الصور الذهنية التي تتكون لدى الفرد متأتية من واقعه الاجتماعي، وتكمل مجموعة الأفكار والمشاعر والسلوكيات التي تعكس تصوره وادراكه لواقعه فهي تشكل تغذية رجعية للفرد لتعود وتؤثر في فهم الفرد لهذا الواقع بصورة جلية تنم عن وعيه وإدراكه.

سوسيولوجيا الأدب بوصفها مساراً بحثياً يهتم بالبعد الاجتماعي لعمل فني أو مجموعة أعمال ومؤلفات[6]:

لذلك يفسر ايداثوف أن من الواجب النظر إلى الأدب متصلاً في علاقته في المجتمع. فهو يمثل الحياة الاجتماعية يجب أن ينظر إلى الخلفية التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأديب لكل نفسر العمل

(1) لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، المكتبة الإسلامية، دار صادر، 2003: 245/ 15.

(2) الإنسان المهدور- دراسة تحليلية، مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، 2005: 226.

(3) العلاقة بين الوعي الاجتماعي والحديث انتشار العقاقير المخدرة، رسالة ماجستير، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، جامعة الملك سعود، الرياض، 1416هـ: 22.

(4) ينظر: النظري في الاجتماع، د. سمير نعيم أحمد، 2006: 188.

(5) النظرية في الاجتماع، مصدر سابق: 189.

(6) ينظر: سوسيولوجيا الأدب، بول آرون وألان فيها، تر: علي مقلد، مراجعة: حسن علي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت- لبنان، 2013م: 54.

الأدبي الفني[7].

الوعي الجماعي في الأدب العربي

العصر الجاهلي – صدر الإسلام:

إن الأدب في عصر ما قبل الإسلام يمثل وثيقة تاريخية كانت سجلاً حافلاً وزاخراً في تسجيل مواقف الشعراء عن ذواتهم والآخرين، ليخلق لنصحهم قيماً جمالية من خلال إدراكهم لواقعهم، فكانت القبيلة أحد أول مراحل تشكل الوعي الجمعي لدى الفرد في مراحل البحث عن الهوية والانتماء وإثباتها في النظام القبلي، انطلاقاً من القيم الأخلاقية المشتركة بين أفرادها مثل الشجاعة والكرم والثأر وحماية الجار التي كانت تغرسها في الوعي الجمعي لأفراد القبيلة بوصفها السلطة الحاكمة لأفرادها فالقبيلة بوصفها السلطة العليا التي كانت تمارس دوراً مركزياً في القبيلة ابتداءاً برئيس القبيلة الذي كان يحفظ أبناء قبيلته الذين تربطهم مع بعض دم واحد ونسب واحد ويشتركون فيما بينهم برابطة العصبية القبلية ذلك الرباط المقدس الذي يربط جميع أفرادها وينظم سيادتها في داخل وخارج القبيلة فضلاً عن تحديد ما على أفرادها من حقوق وواجبات[8].

فالقبيلة تمنح أفردها القوة والعزة والمنفعة في مقابل هذا كان يعتز بقبيلته ويشد بمناقبها ويتغنى بمآثر قومه ومفاخرهم وأيامهم ويتعصب لها من الاعتداءات الخارجية، فتقدم النصرة لهم أخطأوا أم أصابوا عدلوا أم ظلموا حتى قالوا «**أنصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً**»[9].

وأدوار القبيلة بوصفها سلطة حاكمة وما تمارسه من حماية ودفاع وما توجبه من أعراف وتقاليد فهي بمثابة قانون يكون مرجعاً في الثأر والدية وغيرها والعصبية القبلية كانت بمثابة الهوية وحفظ الانتماء واعتزاز أفرادها بها بمثابة انتمائهم الذاتي، يحيلنا ذلك إلى أن المراحل الأولية لتشكل الوعي الجمعي ابتداءاً من القبيلة التي كانت البذرة الأولى والتي أسهمت بشكل مباشر في بناء المنظومة اجتماعياً منها يستمد ويتشكل وعي أفرادها من خلال ما تبثه فيهم من قيم أخلاقية وهي قيم لا تكون إلا في وحدة الجماعة ووعيهم الاجتماعي بها. وانتهاءاً بالشعر الذي جسد هذه القيم فهو لسان حال القبيلة والناطق الرسمي لها في توثيق بطولاتها والفخر بها «**فكانت القبيلة إذا انبع فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس**»[10] وهذا يحيلنا إلى الدور الإعلامي والثقافي الذي يمارسه الشعر والشاعر في صناعة وتشكيل وعي الجماعة بما ينشره باللغة الشعرية وبه ظهرت ملامح التطور الجامعي للذات والآخر.

ولما كان الأدب مرآة للمجتمع فكانت النصوص الأدبية الشعرية تعكس ما فيه من قيم ومعتقدات وسلوكيات كانت تمارس في المجتمع الذي كتبت فيه فهي تعكس في الوقت نفسه الوعي الجماعي والاجتماعي لتلك الفترة.

---

(7) ينظر: سوسيولوجيا الأدب، وربير إسكاربيت، تر: آمال انطوان عرموني، ط3، عويد للنشر، بيروت- لبنان، 1993م: 25.

(8) ينظر: مظاهر القوة في الشعر الجاهلي، د. حنا نصر الحتي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2007، ط1: 116-113.

(9) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية للنشر والطباعة، ط7، 1964: 65/ 1.

(10) كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني (ت463هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ/ 1984م: 65/ 1.

فعلاقة الأدب بالمجتمع علاقة وطيدة ولا يمكن لنا نفيها، فالأدب وليد المجتمع، ولا يكون هناك أدب إلا في ظل شروط أحد أفراد المجتمع قادم من مجتمع معين وهو أيضاً المتلقي لهذا الإنتاج أي العمل الأدبي، أما فيما يخص احتضان هذا العمل والنص الأدبي، فأن المجتمع بفعالياته وأنساقه الفرعية الأخرى هو الذي يتلقى النص الأدبي، فعلى مستوى الاشتغال يتأكد واقعياً أن حقل علم الاجتماع الأدب يتعلق بالأديب والأدب والمتلقي على صعيد المجتمع فيشترط وجود الأدب وإنتاجه وتداوله بوجود المجتمع وإلا فقد شرطه في عده أدباً، فيلعب علم الاجتماع دوراً بارزاً في إنتاج الأدب وبلورة الرؤى والمسارات المؤطرة[11].

فالأدب لا يختص في إنتاجه بالعامل النفسي، بل هو محصلة نهائية لتداخل عدة عوامل مجتمعة يحضر فيها النفسي والجمعي والتاريخي، بمعنى أن الأدب ملازم للأدب في شروط الإنتاج وتفاصيله أيضاً، فالأدب لا يمكن أن ينفصل عن سياقه المجتمعي فكل نص أدبي ليس تجربة اجتماعية غير واقع ومتخيل. فلا أدب من دون مجتمع، ولا مجتمع من دون أدب فلكل مجتمع أدبه ولكل أدب مجتمعه الذي ينكشف من خلال نصوصه ورواياته الشفهية[12].

فيمكن تلخيص علاقة الأدب بالمجتمع، بأن وجود الأدب والفن مرهون بوجود الجماعة، ومن أجل الجماعة أي: «**أن فهم الأدب في عمقه ومراميه، لا يمكن إلا داخل الإطار الجماعي الذي منه انطلق الأدب إليه يوجه، وهذا موضوع علم اجتماع الأدب**»[13].

وانطلاقاً من علاقة الأدب بالمجتمع بوصف الأخير بمرآة تعكس الحياة الاجتماعية في مختلف أبعادها وعلاقات الصراع الدائرة فيها يمكن لنا تتبع البوادر الأولية لتشكل الوعي الجمعي من خلال الشعر الجاهلي ابتداءاً بالقبلية بوصفها مجتمع الشاعر الجاهلي.

ففي صوت (عنتر بن شديد) في قصيدة حرام وحلال[14]، يعلو صوت الوعي الجماعي بوصفهم وحدة متماسكة بقوله:

منهم أبي شداد أكرم والد
والأم من حامٍ فهم أخوالي[15]
وأنا المنية حين تشتجر القنا
والطعن مني سابق الآجال

إلى قوله:

قومي صمام لمن أرادوا صنيمهم
والقاهرون لكل أغلب صال
والمطعمون وما عليهم نعمةٌ
والأكرمون أباً ومحتد خال
نحن الحصى عدداً ونحسبُ قومنا
ورجالنا في بالحرب غير رجال
منا للعين على الندى بفعاله
والبذل في اللزبات بالأموال

في النص الشعري يتحدث الشاعر ويفتخر بنسبه وانتماء تم يذهب إلى أمجاد قومه مجتمعة فهو يمثل الوعي الفرد الممزوج مع وعي جماعته ككيان مشترك تجمعهم أهداف مشتركة وهي في الدفاع والذود عن شرف القبيلة فضلاً عن اعتزازه

(11) ينظر: علم اجتماع الأدب (منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد)، د. أنور عبد الحميد الموسى، دار النهضة العربية: 19-18.
(12) ينظر: المصدر نفسه: 19-18.
(13) مدخل إلى علم اجتماع الأدب، سعدي حناوي، بيروت، دار الفكر العربي، ط1، 1994: 13-12.
(14) بنو حام، يراد بهم السودان: 109، ديوان عنتر بن شداد، اعتنى به: أمين سعيد، المطبعة العربية، مصر.
(15) ديوان عنتر بن شداد، شرح علي العيسلي، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت- لبنان: 53-51.

في انتماءه وحفظ الهوية وهذا ينم عن وعياً ذاتياً مرتبطاً بالوعي الجماعي فهو جزء لا يتجزأ من الجماعة في الدفاع عن القبيلة والعصبية لها، وبهذا يعزز من الانتماء القبلي فالقبيلة هي صمان الأمان للفرد الجاهلي في منحه هويته وفي هذه السلسلة من الفخر والتفاخر بناء القبلية ذلك تأكيد في النص في النص على دور الشعر كأحد الوسائل في تشكيل الوعي الجماعي في الجاهلية وكيف اتخذوا من خلال وسيلة للتأكيد على قيم الشجاعة والكرم الذي يبرز فيها الانتماء القبلي.

ومن خلال اللوحة الانتمائية التي يقومها الشاعر الجاهلي ضمرة بن صخرة النهشلي يكشف عن روح حريضه على القبيلة بقوله[16]:

وطارق ليلٍ كُنتُ دمّ مبيتهِ
إذا قلَّ في الحي الجميع الروافد
وقلت لهُ: أهلاً وسهلاً ومرحباً
وأكرمتُهُ حتى غدا وهو حامدُ
وما أنا بالساعي ليُحرز نفسه
ولكيننني عن عورة الحي ذائدُ
وإن يكن مجدُ في تميم فإنهُ
نماني البقاعُ نهشلُ وعطارد

إن النص الشعري يكشف في أبياته عن وعي جماعي متين في التركيز على حماية المجتمع، فنلاحظ رغم أن النص الشعري يتحدث عن ذات فردية لكنه هذه الذات لا يتحقق إلا من خلال تطبيق أخلاقيات المجتمع كواحدة من أنساق القيم لكنه يطمع من خلال ذاته الفردية إلى الظفر بتحقيق مصلحة الجماعة أي القبيلة، ليحتم البيت بالفخر (بقبيله) عبر ربطها برموز تاريخية (نهشل وعطارد) التي تمثل شخصيات أبطالاً حقيقة لصالح الجماعة ككل وهذا يعزز شعور الانتماء والفخر بالهوية الجماعية وهي عناصر أساسية في تشكيل الوعي الجماعي من خلال روابط مشتركة بين الجماعة مثل البطولات والتي من شأنها أن تعزز مكانة مجتمع القبيلة.

تكشف النصوص الشعرية للشعراء في العصر الجاهلي بجلاء عن أن العصبية والتي تمظهرت في الانتماء والهوية القبلية، كانت هي العماد الأولى في بناء وتشكيل الوعي الجماعي، من خلال ما تبثه بين أبناء القبيلة الواحدة من قيم الحماية والثأر والنخوة وهي قيم مشتركة ذات طابع جماعي يشارك فيها أبناء القبيلة الواحدة.

صوت الوعي الجماعي ليظهر في قول عمرو بن كلثوم في الفخر بقبيلة يعكس استقرار الوعي بالقبيلة كأعلى سلطة اجتماعية بقوله[17]:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها
وبنطش حين نبطش قادرينا
تُسمى ظالمين وما ظُلمنا
ولكنّا نبدأ ظالمينا
إذا بلغ الفطام لنار رضيع
تخر له الجبابرُ ساجدينا
ملإنا البرّ حتى ضاق عَنّا
كذلك البحر نملؤهُ سفينا

إن النص الشعري يعلو فيه صوت وعي الجماعة القوي الذي يتجلى في مضمون الكلمات والمعاني، الدالة على الهوية والانتماء والسيطرة والنفوذ والكرامة والتلاحم فيما بين أفراد القبيلة ابتدأ بالطفل الرضيع الذي تحته الوجود والحقوق

(16) المفضليات، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط1، 2006م: 326.

(17) ديوان عمرو بن كلثوم، شرح مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1998م: 154.

وهـذا يـدل عـن وعـي جماعـي نابـع مـن الاعتـداد والتلاحـم الاجتماعـي فهـذا «**الانتـماء ظاهـرة اجتماعيـة وفكريـة ثـم فنيـة تأصلـت منـذ القـدم لـدى الجاهليـين في وجـوه كثيرة، وهـو حس مرتبـط بالقبيلة، جعـل الجاهلي في ذاتـه الفرديـة جـزءاً منصهـراً في كيـان أكبر يقـال لـه الـذات الجماعيـة، تنهـي حريتـه عنـد حـدود مصالحهـا ووجودهـا، وبهـذا الوعـي يصبـح الجمـوع لـدى الشـاعر المنتمـي، لـذا كان ملزمـاً بالدفـاع عـن قبيلتـه وقيمتهـا وهـو التـزام أدبي وطوعـي....**»[18].

أمـا عـن تشـكيل الوعـي الجماعـي في صـدر الإسـلام، عندمـا نضطلـع إلى الولـوج في عـصر أذهاننـا هـو التغير الجذري الـذي أحدثـه دخـول الإسـلام على منظومـة البنيـة الاجتماعيـة في المجتمـع العـربي، فقـد شـهدت الجزيـرة العربيـة تغـيرات كبـيرة ومهمـة عـلى الصعيـد الاجتـماع والعقائـدي فـأول تلـك التحـولات هـو التحـول مـن مجتمـع قبـلي قائـم عـلى العصبيـة القبليـة الـولاء للقبيلـة كسـلطة سياسـية عليـاً إلى مجتمـع ديني يؤمـن بوحـدة العقيـدة والأمـة نخلـص مـن ذلـك إلى أن لبيئـة الإسـلامية كان لهـا دور كبـيرة ومـبرزاً في التغيـير طـرأ عـلى مستوى الفكـر والسـلوك أو العقيـدة الأساسـية والمجتمـع ككل.

فـكان دخـول الديـن الإسـلامي قـد أسـهم في بنـاء الوعـي الـذاتي للمجتمـع وتشـكيل الوعـي الجمعـي فهـو أحـد أهـم العوامـل الأساسـية التـي أسـهمت في التحـولات الاجتماعيـة، فالإسـلام أخـرج إمكانـات وحاجـات الفـرد الكامنـة في داخلـه وحاجتـه الأساسـية وظيـف تلـك الإمكانـات وقدراتـه وجعلهـا حقيقـة واقعيـة ترتبـط بالتحصيـل والإنجـاز والتعبـير عـن الـذات، وقـد عمـد الإسـلام إلى ترقيـة النفـس الإنسـانية في بناءهـا الـذاتي عـن طريـق بـث طريقـة التنافـس عـلى التحصيـل المعـرفي مـن القـرآن الكريـم للتمييـز في مجـال الخـير والرفعـة والعـزة كـما في قولـه تعـالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَفِسُونَ﴾[سـورة المطففـين: 26] وأصبحـت هـذه ميادين هـي ميـدان التعبـير عـن الـذات وإشـهار الهويـة والمحافظـة عليهـا، هويـة ترفـع رايـة الخـير والنـماء[19] بعدمـا كانـت الفـرد في الجاهليـة يسـعى جاهـداً إلى الحـروب والقـوة والثـأر مـن أجـل العصبيـة القبليـة التـي رأى فيهـا سـبيل إلى حفـظ الهويـة وانتـماءه. فقـد جـاء الإسـلام ليدعوهـم إلى التقـوى والابتعـاد ليكونـوا أمـه واحـدة أخرجـت للنـاس تأمـر بالمعـروف وتنهـي عـن المنكـر ولم يقتـصر ذلـك التوجيـه عـلى جماعـة معينـة أو فـرد معـين مـن المسـلمين فـكل مسـلم مـن واجـه الشـعري أن يكـون بنـاء في مجتمعـه فضـلاً عـن انتـزاع الكثـير مـن بواعـث الشـعر والتـي مـن شـأنها أن تثـير النفـوس ويشـعل الإيقـاد كالأخـذ بالثـأر، والانتقـام والنشـوة بالخمـر والعصبيـة القبليـة[20].

يدلنـا ذلـك لي بلـورة أهـم الأسـباب التـي سـاهمت في تشـكيل الوعـي الجماعيـة في صـدر الإسـلام هـو الإسـلام والقـرآن الكريـم الـذي كان بمثابـة دسـتور ومرجـع فعنـد الفكـر الجاهـلي وننتقـل بـه إلى مفهـوم الأمـة الواحـدة بقولـه تعـالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمـران: 110] إضافة إلى خطب الرسـول (صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم) ومسـاهمته المبـاشرة في

(18) شـعر المفضليـات مقاربـة سـايكولوجية تأويليـة، د. سـامان جليـل إبراهيـم محمـد، طباعـة تمـوز، دمشـق، ط1: 87.

(19) ينظـر: الوعـي الجمعـي حالـة البنـاء الـذاتي للمجتمـع في السـياق القـرآني دراسـة موضوعيـة، عـلي جمعـة عـلي الرواحنـة، علـوم الشريعـة والقانـون، المجلـد43، ملحـق2، 2016.

(20) ينظـر: أدب العـرب في صـدر الإسـلام، د. حسـن الحـاج حسـن، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشـر والتوزيـع، بـيروت، ط1، 1414هـ/ 1992م: 87-76.

تأسيس قيم جماعية جديدة تتجاوز الفردية والقبلية.

فيمكن أن نلخص أهم مظاهر التحول في الوعي الجمعي وانعكاسه واقعياً في موضوعات الشعر العربي في صدر الإسلام.

فقول عبد الله ابن رواحة فقد غلب عليها الطابع الإسلامي:

نجالدُ الناس من عُرض فناسرهم
فينا النبي وفينا تتنزل السور
وقد علمتم بأن ليس غالبنا
حي من الناس إن عزّوا وإن كثروا
يا هائم الخير إن الله فضلكم
على البرية فضلاً ما له عسر
فثبت الله ما آتاك من حسن
تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

أن النص يعكس التحول في الوعي الجمعي فمن خلال مفردات ومعاني النص يعكس تحولاً سوسيولوجياً عميقاً في المجتمع العربي فنلحظ أن الوحدة العقائدية هي التي تربط بين العرب والمسلمين كوحدة فكرية وروحية جمعت فيما بينهم.

وأصبحت الهوية الإسلامية بديلاً عن الهوية والانتماء القبلي، التي تقوم الرسالة المحمدية لا على النسب والعرق كما كان في الجاهلية. فقول[21] حسان بن ثابت بمدح النبي ﷺ:

أغر عليه للنبوة خاتم
من الله مشهود يلوح ويشهد
وصنم الإله اسم النبي إلى اسمه
إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد
وشق له من اسمه ليجّلسه
فذ والعرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة
من الرسل والأوثان في الأرض نعبد
وأنذرنا ناراً، وبشر جنة
وعلمنا الإسلام، فالله نحمدُ

وقوله[22] أيضاً في مدح النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم):

وأحسنُ نسك لم تَرقط عيني
وأجمل منك لم تلدِ النساءُ
خُلِقتَ مبرأ من كل عيب
كأنك قد خُلقت كما تشاء

فهذه النصوص تشير إلى الولاء الجماعي للنبي ﷺ وهي نقله في الفكر والوعي آنذاك، فتحول الولاء من رئيس القبيلة الذي كان يمارس السلطة على جماعة معينة إلى ولاء روحي وعقائدي ينم عن حرية وامتنان الشخص النبي الكريم (عليه الصلاة والسلام) فضلاً عن هذا تصور الوعي ليشمل تطمين معاني الرسالة والإسلام في النصوص الشعرية، وأيضاً هجر الكتاب والشعراء للمعاني البدوية والوحشية واستعمال بدلاً عنها الأفكار الإسلامية الجديدة، فتركوا المبالغة والفحش والتزموا الصدق والإخلاص[23].

فبدا لنا إلى أن الوعي الجماعي لم يكن على جانب أو مستوى واحد وإنما اشتمل على عدة مستويات ومجالات من ألفاظ ومعاني وصولاً إلى الموضوعات الشعرية.

في عصر صدر الإسلام تفجرت طبيعة أغراض الشعراء الشعرية فرضت عليهم طبيعة العصر والبيئة بعد التحول الجوهري طرأ عليها تحتم على الشعراء أن تتركوا الهجاء المقذع، والفخر

(21) ديوان حسان بن ثابت، شرح لمبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994: 54.

(22) م. ن: 21.

(23) ينظرك أدب العرب في صدر الإسلام: 68.

الكاذب والغزل الفاحش فضلاً عن ترك القول في الموضوعات التي يرفضها الإسلام ويحرمها كشرب الخمر، ولعب الميسر، والأخذ بالثأر، والنميمة والتثبيت والاستهتار والفجور، والرغبة في الانتقام، وحياة البطولة والصراع[24] وتحول القول في الأغراض التي تطابق وطبيعة العصر والظروف وتشابه توجهات الوعي الجماعي الذي أصبح إليه الفرد والمجتمع في تلك الفترة وعلى الدعوة إلى الإسلام الحنيف ومبادئه القومية، وهجاء المشركين والكافرين، ورثاء الشهداء والفخر بالانتصارات فضلاً عن المدح والحكمة والزهد.

سوسيولوجيا الشعر الأموي وتشكلات الوعي الجمعي:

بعد انتهاء عصر صدر الإسلام الدخول في مرحلة العصر الأموي حدثت تغيرات كثيرة في المجتمع وكانت السياسة والنزاع على الحكم من أهم الأحداث في ذلك العصر وهذه التغيرات أحدث نقله على الشعر والنثر، ولاسيما الشعر، فظهر لدينا نوع من الشعر السياسي الذي صور الأحداث السياسية بصورة واضحة للقارئ.

كما أن الإسلام ترك أثراً في الشعر الأموي ولاسيما في موضوعاته الشعرية. فتارة نرى النزعة الإسلامية تقوى عند أحد الشعراء وتارةً أخرى تضعف عند الآخر، ويرجع ذلك إلى نفسية الشعراء أنفسهم، فكان منهم من تعمق بالإسلام، ومنهم من لم يدخل الإسلام إلى أعماقه، وعلى الرغم من ذلك نرى ارتفاع موجة النصح والإرشاد. فكثر الوعاظ والنساك يذيعون وعظهم ونسكهم في مختلف البيئات سواء أكان في المساجد أو القصور أو في مقدمات الجيوش[25]:

أما عن الوعي فبعد أن كان الوعي جماعي في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي فبدأ يتحول شيئاً فشيئاً في العصر الأموي في بداية الأمر كان الوعي جماعي ومن ثم تحول إلى وعي فرد عبرَ به الشاعر عن ذاتهِ.

فالوعي الجماعي تمثل في روح العصبية القبلية والجنسية، فالدولة اتخذت من الشعر سلاحاً لتوطيد دعائمها ولاستمالة الناس إليها، فبني أمية تسلحوا بالسيف واللسان والقلم، وكل هذا لم يغنيهم عن سلام العصبية ومنها القبلية التي كانت بين القبائل ومنها قبلية قريش والنزارية واليمنية وغيرها. وقد أوردت هذه العصبية شعراً وكان أكثره في الهجاء والمديح.

فالشاعر هنا يتعصب لقبيلته ويمدحها ويذم القبيلة الأخرى، فأن كثير من شعراء العرب اتخذوا من هجاء خالد القسرى مادة شعرية لهم ونرى ذلك في قول الفرزدق:

سَلُوا خالدا لا أكرم الله خالداً
متى وكيف قسر قريشاً تدينُها؟
أقبلَ رسول الله أم بعد عهدهِ
فتلك قريش قد أث سمينها
رجو ناهداه لا هدى الله خالداً
فما أمه بالأم يهدى جنينها

أما عن القبلية الجنسية أو الشعوبية فقد كانت عبارة عن صراع جنسي بين العرب وغيرهم، وظهر هذا الصراع في العصر الأموي بمظهرين اثنين فالمظهر الأول: هو تفضيل العرب لأنفسهم على الفرس، أما المظهر الآخر تمثل في تسوية العجم

(24) م. ن: 81-80.

(25) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي)، شوقي ضيف، ط7، دار المعارف، مصر، 1999م: 176.

أنفسهم بالعرب؛ وذلك لأنهم ينسبون إلى أم واحدة وأب واحد، وقد خلفت هذه العصبية نتاج شعري أشبه بمعارك لسانية ومن أمثلة ذلك قول محمد بن بشير الخارجي في تحقير الموالي.

إذا افتقر الموالي سعى لك جاهداً

لترضى وإن نالك الغنى عنك أدبرا

أما عن دفاع الموالي عن أنفسهم نرى ذلك في قول ابن يسار يتباهى بقومهِ العجم:

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به

ولي لسان كحد السيف سموم

فهذه العصبية بنوعيها -القبلية والجنسية الشعبوية- هي جعلت الشاعر يتحدث بوعي جمعي لا فردي[26].

ومن النزعات الأخرى الذي أثرت في الشعر العباسي هي الزندقة. ومثال على ذلك قول بشار بن برد الذي غلبت الزندقة وهو يفضل النار على الطين ويفضل إبليس على أدم:

أبليس خير من أبيكم آدم

فتنبهوا يا معشر الفجار

أبليس من نار وآدم طينة

والأرض لا تمو سمو النار[27]

وللشعر الأموي مراكز رئيسية منها مكة والمدينة، إذا اصبحت المدينة ومكة مركزين مهمين في العصر الأموي من مراكز الشعر، وقد دخلت عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر، بل إلى الترف... واشتهر هذا العصر في الغناء، فكما ظهر في المدينة، فأن مكة أيضاً نالها نصيب من الغناء وظهور المغنين.

وكانت هناك دور مخصصة للسماع يتوافد عليها الشباب كل ليلة، ولاسيما شباب المدينة، ومن أشهر هذه الدور دور جميلة، إذ كانت تكتظ بالمغنين والمغنيات، وإلى جانب الفناء والمرح نهض الشعر نهضة واسعة، وكان الشعر يصب في مجال الحب والغزل والمدح الذي دعت إليه ظروف الترف والغناء، وإلى ذلك الجانب لمع الهجاء[28].

ومن المؤثرات الاجتماعية في العصر الأموي الذي أثرت على الأدب ولاسيما الشعر على الأكثر: هي الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرُّبها وذلك أثر على اللغة العربية. فبعد أن تمت الفتوحات أخذ العرب والموالي جميعاً يعيشون سوياً حياة مشتركة، وبذلك امتزجت لغة الشعر باللغات الفارسية والقبطية والنبطية، وهذا الامتزاج أدى إلى اللحن في اللغة العربية الذي شاع على ألسنة بعض العرب أنفسهم؛ لذلك خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم حتى يقال: إن الخليفة عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانهِ، وهذا اللحن الدخيل على العربية وانتشاره في الشعر دفع إلى ظهور اللغويين منذ القرن الأول للهجرة، وبذلك تجردت جماعة من العلماء وخاصة علماء البصرة لتنقية العربية وما دخلها من فساد[29].

ويتمثل الوعي الجماعي في الشعر الأموي في الشعر السياسي الذي ازدهر هذا اللون وتطور في العصر الأموي؛ وذلك لكثيرة الخلفاء المتنازعين على الحكم وكذلك لاهتمامهم في الشعر فكانت قصورهم مرتع للأدباء والشعراء، واهتمامهم بالشعر والأغداق على الشعر المنشدين بالمال

(26) أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت- لبنان، د.ت: 484-455.

(27) بشار بن برد شعره أخباره، شرح أحمد حسنين القرني، مطبعة الشباب، مصر، 1925م: 23.

(28) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي)، دار المعارف، ط7، مصر، 1119: 139.

(29) ينظر: م. ن: 175-169.

والهدايا، لذلك نشط الشعر السياسي تحت رعاية الخلفاء الأمويين.

فالشعر السياسي في العصر الأموي صارَ قسيم الخطابة للدعاية عن الأحزاب وبذلك كثر شعراؤه، وافتوا في طرائفهم واحتجاجهم، وكثر في هذا اللون من الشعر عناصر عديدة ووسائل إثارة وتأثير، لأنه كان موجه إلى العامة بالدرجة الأولى[30].

ومن أدب السياسي في هذا العصر الأخطل الشاعر الرسمي للدولة، وذلك في مدحهم والترويج لسادتهم، أيضاً الكميت شاعر الشعية الذي نظم الشعر فيهم وتغنى بحبهم ودافع عنهم وله ديوان كامل في مدح أهل البيت والإشادة بهم وهو ديوان الهاشميات، ومن شعر الساسة عمر بن خطان (شاعر الخوارج) والحجّاج خطيب الأمويين، وأيضاً عبد الحميد بن يحيى الملقب بكاتب الأمويين[31].

وبعد ذلك نلاحظ ظهور الوعي الفردي للشاعر فبدأ الشاعر بالتغيير عن نفسهِ وذاتهِ وبدلاً من الافتخار بالقبيلة والدولة بدأ يفخر بنفسهِ وشعرهِ ومكانته الاجتماعية، ونلاحظ ذلك في أغراض الشعر منها الغزل والرثاء والهجاء والخمريات. وسنعرض لذلك بشيء من الإيجاز.

ففي الخمريات يظهر الوعي لأنه الشاعر يعبر عن ظاهرة تخصهِ سواء في شربهِ للخمر أو التغني بها ووصفها.

فظهرت الخمريات وكثر الحديث عنها بعد أن غاب الوعي الإسلامي عند بعض الشعراء، ومن أشهر شعراؤها الحزين الكناني والأقيشر الأسدي، وكذلك القطامي ونلاحظ ذلك النفس في قول القطامي:

وكأس تمشى في العظام سبيئة
من الراح تلعو الماء حتى تكاثره
كميت إذا ما تشجها الماء صرحت
ذخائر حالي عليها يناذره

وكذلك يعد الوليد بن يزيد رائداً لمدرسة الخمريات، فهو محباً للخمرِ ونرى ذلك في قولهِ:

عللاني وأسقياني ... من شراب أصبهاني
من شراب الشيخ كسرى ... أو شراب القيروان
أن بالكاس لمسكا ... أو بكفى من سقاني
أو لقد غودر فيها ... حيث صبت في الدنانِ

فالخمريات تتميز بسهولة اللفظ والمعنى ومرافقة الموسيقى الراقصة لها[32].

فإن العوامل الاجتماعية وحياة التحلل والحرية في العصر الأموي دعت إلى ظهور شعر الخمريات ومع ذلك لم ترتقِ إلى مستوى الخمريات في العصر العباسي؛ فازدهرت وأصبحت الخمريات موضوعاً شائعاً في العصر العباسي فانتج الشعراء فيها دواوين وقصائداً مطولة.

وكذلك يتجلى الوعي الفردي عند الشاعر في موضوع الرثاء؛ وذلك لأن الرثاء تعبير صادق عن نفس ومشاعر الشاعر ذاته، وهو تعبير صادق عن تجربة حقيقية يمر بها الشاعر بعد فقد شخص عزيز عليهِ.

ومن أمثلة الرثاء أبيات الفرزدق في رثاء أباه غالب بن صعصعة:

نعائي ابن ليلى للسّمَاحِ وللندى
وأيدي شَمَالٍ باردات الأنامل

(30) ينظر: أدب السياسة في العصر الأموي: 468.
(31) ينظر: أدب الساعة: 506-492.
(32) ينظر: الأدب الأموي تاريخه وقضاياه، زكريا عبد المجيد النوني، ط1، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، 1992م: 124-123.

يعضون أطراف العِصّي تَلفِهُم
ومن الشأم حمراء السرى والأصائل
سَرَوا يركبون الليل حتى تَفرّجَتْ
دُجاهُ لُهُمْ عن واضحٍ غير خاملِ
وقد خمدتْ نارُ الندى بعد غالبٍ
وقصّرَ عن معروفِهِ كلُّ فاعل(33)

وأيضاً تظهر الأنا والتعبير عن النفس عند شعراء النقائض كجرير والفرزدق والأخطل.

فالنقائض لون شعري منذ العصر الجاهلي لكنها تطورات على يد شعراء بني أمية، وأدت عوامل متعددة لتطورها منها سياسية واجتماعية وشخصية. فمثلت نقائض العصر الأموي عملية جديدة ومتطورة واعتمد المنطق والاستدلال(34)، ومثال ذلك قول جرير يهجو الأخطل:

عجبتُ لهذا الزائد المُترقب
وإدلالهِ بالصّرمِ بعد التجنب
أرى طائر أشفقت من نَعباتهِ
فإن فارقوا غدراً فما شِئت فانعَبِ
إذا لم يزل في كل دار عرفَتَها
لها ذارِفٌ من دَمعِ عينيكَ يذهب(35)

فالهجاء هو تعبير فردي ينم عن نفس الشاعر ومسألة شخصية بينه وبين شخص آخر أو عداوة لذلك يترجمها عن طريق كلماتهِ.

وكذلك الزهد في الشعر يعبر عن تجربة فردية، فانتشر الزهد في العصر الأموي عند استقرار الحياة وانتشار الوعاظ والنساك وأثرت الحياة الاجتماعية وتعاليم الدين والإسلام في نفوس الشعراء ومن موضوعات الزهد التذكير بالآخرة والصلاة والصوم والتحذير من شرب الخمر، والدعوى إلى تقوى الله، ومثال على ذلك: قول البربري من الموت:

فكم من صحيح بات للموت آمنا
أتته المنايا بغتة بعد ما هجع
فلم يستطع إذا جاءه الموت بغتة
فراراً ولا منه بقوته امتنْع
فلا يترك الموت الغني لما لِهِ
ولا معلوماً في المال ذا حاجة يدعْ(36)

ويظهر الوعي الفردي والتعبير عن الذات في شعر الغزل، ولاسيما الغزل العذري؛ لأنه أكثر تعبير عن الذات الفردية مثل شعر جميل بثينة وقيس بن الملوح، فالشاعر هنا يعبر عن تجربة شخصية ويعاني من ألم الحب. ومثال على ذلك قول قيس بن الملوح:

وناديتُ يا رحمن: أول سؤلتي
لنفسي ليلى ثم أنتَ حسيبها
وان أعطَ ليلى في حياتي لم يَتبْ
إلى الله عبدٌ توبة لا أثوبها
يقرُّ لعيني قربُها ويزيدني
بها عجباً من كان عندي يعيبها(37)

فهنا الشاعر يعبر عن تجربة حبه ليلى ويناجي الله، فهذه الأبيات تعبيراً عنه.

والأبيات كثيرة عن الغزل والوعي الفردي لكن لا يسعنا المقام لذكرها جميعاً لذلك اكتفينا

(33) ديوان الفرزدق، كرم البستاني، مج (2)، دار بيروت، بيروت- لبنان، 1984: 65.

(34) ينظر: محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي، يوسف شحدة الكعلوت، 2009: 191. https://bibliography.mk.iq.

(35) ديوان جرير، كرم البستاني، دار بيروت للطباعة، بيروت- لبنان، 1986م: 24.

(36) ينظر: محاضرات في الأدب الإسلامي: 203.

(37) ديوان قيس بن الملوح (مجنون ليلى)، أبو كرم الوالبي، تعليق ودراسة (يسرى عبد الغني)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1999: 31.

بمثال عن الغزل العذري فقط والآن سنذكر شيئاً من الإيجاز عن تطور النثر في العصر الأموي.

تحولات الوعي الجمعي إلى الفردي في العصر العباسي (مقاربة سوسيولوجية) :

تطورت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، فالفتوحات في هذا العصر سهلت الاستقرار والامتزاج بين العرب والأجانب، واطلاعهم على ثقافات الأمم الأخرى، ودخلت ألفاظ يونانية وفارسية إلى اللغة العربية وخاصة في لغة الشعر انتشرت هذه الألفاظ الفلسفية، وازدهر العمران والاقتصاد في العصر العباسي، وهذا التطور أصاب الأدب العربي وأثر فيه. فنلاحظ ازدهر الشعر العربي في العصر العباسي ازدهاراً واسعاً وكثر النتاج الشعري في هذا العصر[38].

فكثر الخلفاء وتشجيعهم على الأدب والمعرفة ظهرت نزعات اجتماعية أثرت تأثيراً كبيراً في الشعر العباسي، ومن أولى هذه النزعات هي الشعوبية، وهي مذهب اجتماعي ينطوي على أهداف سياسية، وقد نادى بها بعض الفرس للحط من شأن العرب. وبشار المولى هو زعيم هذه النزعة وإلى جانب الشعوبية ظهرت نزعة أخرى أثرت في الشعر العباسي وهي الزندقة، والذي ساعد على انتشارها الحياة الحضارية الجديدة والحرية والتحلل من قيود الإسلام والدين، والعامل الآخر الاختلاط بالأجانب والثقافات الأخرى ومن أصحاب هذه النزعة بشار بن برد وحماد عجرد[39].

وهناك نزعة أخرى وهي اللهو والمجون، الذي أثرت على الأدب العباسي وخاصة الشعر، فبعض الشعراء الماجنين اللاهين في الحياة أخذوا يكتبون الشعر ويتطرقون إلى موضوعات بعيدة عن الإسلام والحياة الأخلاقية مثل الغزل بالمذكر والخمريات، ومنهم والبة بن الحباب وأبو نواس الذين انعكست حياتهم على شعرهم، والعوامل التي ساعدت على نزعة اللعو والمجون انتشار الجواري والخمرة وغيرها من عوامل اللهو، ولكن مع ذلك لم يخلو المجتمع العباسي من نزعة معاكسة ترفض هذه الحياة الماجنة العابثة، وهذه النزعة هي الزهد، إذا انكر أصحاب هذا التيار اللهو والعبث وتغنوا بالفناء والموت ومن أمثال هؤلاء الشعراء أبي العتاهية وأن نزعة الزهد أدت إلى انتشار الصوفية ومن زعماء الصوفية رابعة العدوية، ومعروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم[40].

وهذه النزعات الاجتماعية التي ظهرت في العصر العباسي جعلت الشعراء يطورون على القصيدة العربية القديمة وظهور قصيدة بحلتها الجديدة لتناسب المجتمع وتعبر عن هذا المجتمع الجديد، وأول عوامل تطور في الهيكلية الفنية للقصيدة التخلص من المقدمة الطللية والدخول إلى الموضوع المراد مباشرةً.

وهناك بعض العوامل الاجتماعية التي انعكست على الأدب العباسي، ومنها: كثرة الجواري والغلمان، الذي ظهرت نتيجة للترف المادي، مما أدى إلى اقتناء الجواري والغلمان، والنظرة إلى المرأة في العصر العباسي اختلفت من شاعر إلى آخر فمنحهم من نظر إليها نظرة هزلية كأبي نواس ومنهم من نظر إليها نظرة جدية وأحياناً سوداوية كنظرة المعري

(38) ينظر: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، أنيس المقدسي، ط7، دار العلم، بيروت- لبنان، 1989م: 49-40.

(39) ينظر: فن الشعر العباسي (نحو منهج جديد)، يوسف خليف، دار غريب، القاهرة- مصر، د.ت: 18-16.

(40) ينظر: فن الشعر العباسي (نحو منهج جديد): 28.

في شعرهِ، ومن العوامل الأخرى انتشار مجالس الشرب والغناء وشجع الخلفاء على هذه المجالس فلم تخلو القصور منها، ومن العوامل أيضاً التأنق في الفنون الحضارية كتشييد المنازل ونسج الثياب وظهور الآلات الموسيقية وهذا العنصر أثر في غرض الوصف مما جعل هذا الغرض مختلفاً ومتطوراً عن سابقيه من العصور وكذلك مما ساعد على تطور الشعر العباسي انتشار المدارس والعلوم. فتنافس الأمراء والحكام على بناء المدارس والمكتبات وازدياد البعثات العلمية والرحلات، وانتشار الفلسفة والحكمة في الشعر[41].

فكل هذه العوالم الاجتماعية تظافرت في الشعر وطورته تطوراً بارزاً، أما الوعي في هذا العصر انتقل إلى الوعي الفردي، وتخلصت القصيدة العباسية من الوعي الجماعية إلا منا ندر في بداية هذا العصر.

أصبحت أغراض الشعر العباسي تعبر عن الوعي الفردي للشاعر فنلاحظ ذلك في غرض الفخر، فالشاعر يفخر بنفسه وشعرهِ ليشبع الأنا لديه، ونرى ذلك في قول أبي تمام يفخر بنفسه:

ولقد رجوت، فهل لديك بحاجة
وعلمت أنك لا تخيب رجائي
أني امتدحتك لا لفائدة، ولا
همي جزاء مدائحي بجزاه
لكن أروم به احتياطك، أنه
فيما لديك لبغيتي ورجائي

فهنا يقول للممدوح أنا لا لا أمدحك لغرض المال كما يفعل المداحون إنما أمدحك لإريك عظمة شعري ومعانيه[42].

وفخر أبو تمام بنفسه وشعرهِ ليست من فراغ إنما لمعاني شعره المبتكرة حتى قيل عنه أن شعره معقد الألفاظ والمعاني، فأخذوه بعنف ومعانيه الشعرية بعيدة عن المألوف؛ ويرجع سبب ذلك لثقافته وإطلاعه على الفلسفة اليونانية، وهذه العناصر تتظافر على صبغ تفكيره لذلك تظهر معانيه غريبة في نظر القارئ العادي، ويقول في الفخر:

فأويت بالمعروف أعناق المعنى
وحطمت بالإنجاز ظهر الوعيد

فيبن هذا أنه منجزه الشعري غير عادي[43].

وكذلك نلاحظ طغيان الأنا عند المتنبي فيقول في الفخر:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
واسمعت كلماتي من بهِ صممُ
أنام مِك جُفوني عن شوارِدِها
ويسهر الخلق جَّراها وَيَخَتَصمُ

فهنا يفخر بنفسه وأدب، فأن كلماته ومعانيه الشعرية يختلف عن غيره، فحتى الأعمى الذي لا يرى قد أبصر كلماتهِ وأدبه وأيضاً سمع أدبه من كان أصم لا يسمع وأيضاً يوضح أنه ينام مرتاح البال مطمئن من كتابتهِ ولا يفكر في شوارد نظمهِ، ويترك السهر إلى الخلق لحفظ شعره والخصام فيهِ[44].

نلاحظ طغيان الوعي الذاتي الفردي حتى على غرض المدح، فالشاعر العباسي يمدح بألفاظ وأساليب فردية تخص الممدوح وحده لا غيره؛ وذلك لأن الشاعر العباسي يمدح لأجل التكسب؛ لذلك نراه يغدق بمعانيه على الممدوح، ونرى ذلك في مدح أبي نواس للأمين:

(41) ينظر: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي: 59-54.
(42) ينظر: أبو تمام (شاعر الخليفة المعتصم بالله) عمر فروخ، ط1، مطابع الكشاف، بيروت- لبنان، 1935م: 26.
(43) ينظر: المصدر نفسه: 37-36.
(44) شرح معاني شعر المتنبي، ابن الإفليلي، ج1، تح: مصطفى عليّان، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، 1992: 47.

سخر الله للأمين مطايا
لم تسخر لها
فإذا ما ركابه سرن براً
سار في الناء راكباً ليث غاب
أسراً باسطاً ذراعيه يعدو
أهرت كالح الا يناب[45]

فهنا نراه يمدح الأمين بصفات.

ويتمثل الوعي الفردي في الغزل، والغزل في العصر العباسي خرج عن المألوف ولم يعد يعبر عن العواطف والمشاعر الإنسانية ولم يعد يخص المحبوبة فقط، فهنا ظهر لون جديد من الغزل وهو الغزل بالمذكر، الذي دعت إليه تطور حياة المجتمع واللهو والمجون وكثرة الغلمان. فهنا نرى الشاعر أبي نواس يتغزل بالمذكر وهو غزل كثير في ديوانه:

كان ثيابه أطلعـ ... ن من ازارهِ قمراً
يزيدك وجهه حسا ... إذا ما زدته نظراً
بعين خالط التفتيـ ... ـرُ في أجفانها الحورا
ووجه سابري لو ... تصوب ماؤه انحدرا

فهذا النوع من الغزل أيضاً يعبر عن ذات فردية لا تعبر عن الذات الجماعية[46].

ويتمثل الوعي الفردي أيضاً في غرض الهجاء؛ لأنه تعبير عن ذات فردية، ونرى ذلك في قول بشار بن برد في هجاء رجل عند الأمين محمد بن سلمان:

أرفق بعمرو إذا تحركتن نسبته
فأنه عربي من قواريـ

فإن الهجاء أول الأغراض الشعرية التي تطرق إليها شعراء العصر العباسي؛ لأن سوق الهجاء كانت نافعة لأيام، فكان الشاعر يهجو أكثر مما يمدح؛ لأنه كان يبغض الدنيا، وكثير الظن بالسوء من الناس، لذلك كان الهجاء أكثر شدة من العصور السابقة فقد كان هجاءاً مقذعاً كما لاحظنا في قول بشار السابق والتجارب الشعرية كثيرة في هذا الباب لكن المقام لا يسعنا للشرح كثيراً[47].

ويتمثل تيار الوعي الفردي في غرض الزهد، والزهد مثل تياراً واسعاً في العصر العباسي؛ لأنه جاء كرد فعل على حركات الزندقة والمجون واللهو. ويعد أبي العتاهية رائداً لهذا الغرض ونرى ذلك في قولهِ:

طلبتك يا دينا، فأعذرت في الطلب
فما بلتُ إلا الهم والغم والنصبْ
فلما بدا لي أنني لستُ واجلاً
إلى لذة إلا بأضعافها تعبْ
وأسرعت في ديني ولم أقفِ بغيتي
هربت بديني منك أن نفع الهرب[48]

فالزهد كان تعبير عن تجربة شخصية يعيشها الشاعر، وذلك من خلال ترك ملذات الدنيا وانعزاله عن لهو الحياة، وإلى جانب الزهد يظهر لنا غرض آخر يعبر فيها الشاعر عن نفسه وقلقه من الدنيا وتركهِ لحياة اللهو والمجون، وهذا الغرض هو التشاؤم. بل يعد التشاؤم فلسفة حياتية يعيشها شاعر دون آخر.

والتشاؤم برز عند المعري وسادَ في لزومياته، فالمعري متطرف في تشاؤمهِ فهو لا يرى من الحياة إلا الناحية السوداوية ونرى ذلك في قولهِ:

عرفت سجايا الدهر: أما شروره
فنقدٌ ، وأما خيره فوعود

(45) ينظر: أبو نؤاس شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين، قسم2، عمر فروخ، مكتبة الكشاف، بيروت- لبنان، 1933م: 9.
(46) ينظر: المصدر نفسه: 80.
(47) ينظر: بشار بن برد شعرهُ أخبارهن شرح أحمد حسنين القرني، مطبعة الشباب، مصر، 1925: 21.
(48) الأدب العربي، ناظم رشيد، دار الكتب للطباعة، العراق- الموصل، 1989م: 100.

إذا كانت الدنيا كذلك فخلِها
ولو أن كل الطالعات سعود
رقدنا ولم يملك رقاداً عن الأذى
وقامت بها خضنا ونحن قعود
فلا يرهبن الموت من ظل راكباً
فإن انحداراً في التراب صعود

فالمعري يشك من الحياة شكاً فلسفياً ويراه خلاف لكل شيء[49].

والمعري دائماً متشاءم من الدنيا، وسبب تشاؤمه إصابته بالعمى ولزوم بيته ومع ذلك نرى الوعي الذاتي مرتفع عنده ونلاحظ ذلك في قولهِ:

العصا للضرير خير من القا
ئد فيه الفجور والعصيان

فالمعري هنا قد يستغني عن القائد بعصاهِ، بل ترتفع عنده الأنا وقد يستغني حتى عن عصاه بلزوم بيته، ولكنه لم يستغني عن قلمهِ -كتابة الشعر-[50].

ولعل الخمريات التي انتشرت في المجتمع العباسي ومثلها الشعر العربي خير مثال على الوعي الذاتي (الفردي) لأنها تعبر عن تجربة فردية فالشاعر نراه تارةً يصف الخمرة وأدواتها وتارةً أخرى يتغزل بها أو بساقيها، وبرزت الخمريات في ديوان أبي نواس بشكل واسع.

ومن أمثلة ذلك خمرية أبي نواس القائل فيها:

فأسقني خمراً وقل لي: (هي الخمر)
ولا تسقني سراً إذا أمكن الجُهر
فعيش الفتى في سكرهِ بعد سكرة
فأن طال هذا عنده قصر الدهرُ[51]

فانتشار الحضارة والترف والخلفاء والولاة ساعَد على تجديد القصيدة العباسية وكذلك الحرية التي منحها الخلفاء للشعراء فذلك جعلهم يكتبون بدون قيود أو قواعد.

وهناك نوع آخر من الشعر دعت إليه الحضارة العباسية والثقافة والعلم لظهور، إلا وهو الشعر التعليمي؛ إذ نظمه الشعراء لتسهيل حفظ العلوم والمعارف، ولاسيما بعد ازدياد الإقبال على التعلم، ومن مميزاته سهولة اللفظ، وخلوه من العاطفة والخيال؛ لإنه يخاطب العقل، وكذلك يمتاز بطول النفس الشعري وتنوع القوافي واعتمادي الرجز ومن فرسان هذا النوع أبان عبد الحميد اللاحقي، ومثال ذلك قولهِ في شرح أحكام الصوم والزكاة[52]:

هذا كتاب الصوم وهو جامعُ
لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن
فضلاً على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبـــي
من عهده المتبع المرضي
صلى الإله وعليه سلماً
كما هدى الله به وعلما[53]

وفي الختام: إن التطور الكبير والأحداث الذي حدثت في العصر العباسي، لم تغيْر على مستوى البيئة العباسية فمثلما تطور العمران والاقتصاد والسياسة كذلك تطور الأدب العباسي شعراً ونثراً، فالشعر ضم كل هذه التطورات وإصابة القصيدة العباسية من الحداثة ما لم تصب من القصائد في العصور السابقة من الجاهلي إلى العصر الأموي، فمن ناحية الشكل الفني تغير هيكل القصيدة العباسية بعد أن

(49) ينظر: المصدر نفسه: 68.
(50) ينظر: أبو العلاء المعري أو متاهات القول، عبد الفتاح كليليطو، ط1، دار توبقال، المغرب، 2000م: 14.
(51) أبو نواس شاعر هارون: 58.
(52) الأدب العربي في العصر العباسي: 70-69.
(53) م. ن: 70.

كانـت القصيـدة تتميـز بافتتاحيـة وأغـراض أخـرى غـير الغـرض الأصـل -مـن غـزل ومـدح ووصـف- فأصبحـت القصيـدة العباسـية ذات غـرض واحـدة وذات وحـدة موضوعيـة، وكذلـك تغـير مضمـون القصيـدة لتلائـم العـصر وثقافتـه الواسـعة، وأيضـاً تطـورت لغـة القصيـدة العباسـية، أما المعـاني فأصبحت معقـدة بعـض الـشيء كـما عنـد أبي تمـام الـذي تكلـف في معانيـهِ.. وتضمنـت بعـض القصائـد معـاني فلسـفية مثـل قصائـد المعـري، وأصبحـت القصيـدة العباسـية تعـبر عـن وعـي الشـاعر الفـردي وحياتـه.